

الاطفال والشباب المغاربة في أوروبا:

حالة المهاجرين الى فرنسا

د. سارة بن نفيسة

مقدمة :

أبرز تحول في خصائص الجالية المغربية المهاجرة في أوروبا خلال العشريتين الأخيرتين يتمثل في أزمة الهوية المترتبة على التحولات في سياسات الهجرة المتبعة من قبل الدول الأوروبية منذ بداية السبعينات والمتمثلة في السماح للعمال المهاجرين المقيمين لديها باستقبال أفراد عائلاتهم من بلد الأصل، مرفوقا بقوانين واجراءات لمنع الهجرة للعمل.

عملية «التجمع العائلي» هذه تزامنت مع تنامي السلوك المعادي للمهاجرين - العنصري والتمييزي - من ناحية، ومن ناحية المهاجرين تفاقم مشكلات اسرية وتنامي السلوك المتميز، العربي - الاسلامي، وبروز بالحصيلة ظاهرة «ازمة الهوية» بين المهاجرين وبشكل خاص الاجيال الجديدة منهم.

تحليل هذه الظاهرة افرز تباينات عدة مترتبة بالاساس على تباين المقاربات، ومن ابرز المعالجات البحثية المعتمدة تلك التي تركز على البعد الميكروي وتحاول ارجاع الظاهرة الى «صراع الاجيال»، اي تباين ثقافات الجيل الاول مع الجيل الثاني، اما القسم الآخر من الباحثين والمهتمين بمسألة الهوية لدى المهاجرين فقه ابدوا ميلا الى العوامل البنائية المتعلقة بظروف عيش المهاجرين في تفاعلهم مع العوامل السياسية والثقافية والمجتمعية عامة في بلد الهجرة.

ما هي ملامح «ازمة الهوية» لدى الاجيال الجديدة المغربية؟ وما هي العوامل الفاعلة والمغذية لهذه الازمة؟ ذلك ما نحاول ان نتعرض اليه بشيء من الايجاز في هذه الورقة، اسبقناه بعرض احصائي وتعريفي للظاهرة في تطورها خلال العقدين الاخيرين بما يسمح بتوضيح الصورة الوصفية لواقع هذه الاجيال ويمكن من تقديم ارهاصات حول مسألة الهوية الثقافية لدى الاجيال المغربية في اوروبا، مركزين في ذلك على حالة فرنسا، كنموذج من ناحية ولكون القسم الاوفر من المهاجرين المغربية في اوروبا يتواجد في هذا البلد.

1- حجم وخصائص المهاجرين العرب وابنائهم في اوروبا

بلغ عدد المهاجرين المغاربة (الذين احتفظوا بجنسيتهم) في البلدان الاوروبية في اواخر الثمانينات حوالي 2 مليون شخص، ويلاحظ ان عددهم لم يتغير خلال العشرية الاخيرة. وتركز الهجرة العربية في دولة فرنسا حيث يقيم حوالي 72,2٪ من اجمالي المغاربة في اوروبا، هذا بالإضافة الى ان قسما هاما من المغاربة قد تجنس، فقد بلغ عدد المتجنسين المغاربة الذين صرحوا عن جنسيتهم الاولى المقيمين في فرنسا حوالي 240.000 شخص عام 1990، ويمثل العرب المقيمين في دول اوروبا حوالي 1٪ من اجمالي سكان اوروبا.

المهاجرون المغاربة في اوروبا

1990				1981				1982
نسبة النوع	مهاجرين من خارج اوروبا	مجموع مهاجرين	العدد	نسبة النوع	نسبتهم ٪ من مهاجرين من خارج اوروبا	نسبتهم من مجموع المهاجرين	عدد المغاربة	
1989	61.4	39.1	1412127	62.9	67.8	38.7	1437324	فرنسا
74.1	30.4	23.0	159500	—	26.2	17.8	95700	هولندا
79.6	—	1.9	100.100	—	—	1.4	63500	المانيا
38.3	44.8	17.5	158600	—	43.8	14.4	128000	بلجيكا
84.8	54.4	17.5	1830327	—	61.8	17.6	1724524	المجموع
—								
اسبانيا : 70.000				تقديرات ايطاليا : 80.000				
اثينا : 7.000 = 17.700				بريطانيا : 2.000				

المصادر:

Tendances des migrations

Internationales. Sopemi 1992

Recensement de la population de 1990 -

. France 1992

وتمثل فئات السن من الاطفال والشباب نسبة هامة من الجاليات المغربية في اوروبا حيث تمثل حوالي نصفها في غالب الدول الاوروبية. فقد بلغت نسبة الاجيال الجديدة المغربية في فرنسا الذين يبلغ سنهم 0 - 24 سنة 42.3٪ من مجموع المهاجرين المغربية المتواجدين في فرنسا عام 1990، وتصل هذه النسبة الى 52.1٪ بين المغربيين و 45.6٪ بين التونسيين وتتدنى بين الجزائريين حيث بلغت 32.1٪. ويعود انخفاض هذه النسبة بين الجزائريين الى كون الهجرة الجزائرية قديمة بالمقارنة مع هجرات الجنسيات الاخرى وهي بالتالي اكثر استقرارا واقتربا في سلوكها - بما فيه الانجابي - من سلوك الفرنسيين.

توزيع ابناء المهاجرين في فرنسا

حسب فئات السن 0-24 سنة

السن	الجزائريون	المغاربة	التونسيون
0_4	4.8	8.9	9.1
5_9	7.6	13.4	12.5
10_14	7.9	13.5	11.3
15_19	6.7	9.5	7.4
20_24	5.2	6.8	5.3
0_24	32.1	52.1	45.6
المجموع المغربية 0-24 42.3			

- التعداد العام للسكان 1990

بعض خصائص الاجيال الجديدة المغاربة في فرنسا ومسألة الهوية

اثر اتخاذ السلطات الفرنسية - مثل غالب السلطات الاوروبية - قرارها بايقاف الهجرة الوافدة للعمل منذ عام 1973، بدأ يظهر تحولا في طبيعة الجاليات المهاجرة المقيمة في فرنسا، ونتاج خاصة سماح السلطات للعاملين المقيمين من المهاجرين بدعوة افراد اسرهم من بلد الهجرة الاصل للاقامة معهم، ادى ذلك الى ارتفاع تدريجي ومكثف لفئات الشباب بين الجاليات المهاجرة.

ومن ابرز خصائص الاجيال المغربية الجديدة نذكر:

* ان قسما هاما منهم ولد في فرنسا، فقد بلغت نسبة المولودين في بلد الهجرة بين المغربية في سن 0 - 24 سنة حوالي 60٪، هذا بالاضافة الى تحصل عدد هام آخر من ابناء المهاجرين على الجنسية الفرنسية قدرها التعداد العام لسنة 1990 بما يزيد عن 64.000 مغربي من فئة السن 0-24 وهذا الرقم هو دون الحقيقة وانه يعتمد على تصريحات السكان، فقد قدر عددهم احد الباحثين في بداية الثمانينات بحوالي 400.000 (1).

* ان نسبة الاطفال المغربية الملتحقين بالمدرسة تعتبر عالية وتبلغ 97.78 بين الاطفال في سن المدرسة الابتدائية و 99.48 بين الاطفال في سن الثانوية، كما يتبين ان هذه النسبة هي في ارتفاع مستمر، بل ان الزيادة في الالتحاق المدرسي تفوق الزيادة في عدد المهاجرين، فقد بلغت النسبة الاولى بين الاطفال التونسيين حوالي 100٪ خلال الفترة 1975 - 1982 وحوالي 200٪ بين الاطفال المغربية في حين بلغت نسبة زيادة السكان خلال نفس الفترة وعلى التوالي 12٪ و 40٪.

نسبة الزيادة في مجموع السكان	الزيادة في التعليم من مجموع المهاجرين
الجزائريون - 7.23٪	+ 2.48٪
التونسيون + 11.18٪	+ 95.64٪
المغاربة + 39.37٪	+ 171.0٪

(1) A. Jazouli "l'action collective des jeunes immigrés maghrebins de la deuxième génération et/ou la quête de l'identité". Ed. Seuil 1977.

* ان هناك توازنا بين الجنسين حيث بلغت نسبة الذكور من فئة السن 0 - 24 من مجموع المهاجرين من فئة السن هذه 51.3٪ عام 1990.

* كما تشير الاحداث وعدد من الملاحظين الى كون هذا الجيل بحكم تمكنه اللغوي وتطور سلوكه هو اكثر اندماجا في الحياة الاجتماعية والسياسية الغربية وان باشكال متميزة حيث تشير هذه الجهات الى الاشتراك الواسع لهذا الجيل في منظمات وحركات اجتماعية وسياسية تتسم عادة بالنقدية ازاء العنصرية ومعاناة الشباب المغربي الأصل المقيم في فرنسا، كما تشير الى تفاعلها مع المنظمات والاطراف الغربية وكسبها لطلبتها.

خصائص هذا الجيل هي كما تبدو مختلفة عن خصائص الجيل الاول من المهاجرين، بل في العديد من الحالات تبدو شديدة التباين، فمن ابرز خصائص الالباء من الجيل الاول نذكر:

* ان غالبهم كان يعيش في بلد الاصل ضمن اسر تقليدية اي عادة «ممتدة» تشمل افراد الاسرة النوواة وافراد من اقارب الوالدين، فهذا النوع من الاسر هو منتشر في الاوساط التي يهاجر منها القسم الاوفر من المغتربين. فقد صرح على سبيل المثال 44٪ من مهاجرين مغاربة مستجوبين في احدى ضواحي باريس (1) انهم كانوا يعيشون في المغرب في اسرة تشمل في نفس الوقت العائلة النوواة وافراد من الاقارب، كما صرح 80٪ من هؤلاء المهاجرين ارباب اسر في فرنسا ان افراد العائلة الآخرين كانوا يعيشون معهم في بلد الاصل اما داخل البيت نفسه او في بيت آخر داخل نفس المنزل (الدار، الحوش).

* الجيل الاول من الالباء هم شديدا المحافظون ليس فقط بالمقارنة مع الالباء في المجتمع الغربي بل يبدو حتى بالمقارنة مع الالباء في بلد الأصل، المهاجر يبدو شديد التشبث بقيم وتقاليد بلد الاصل منذ دخوله بلد الهجرة، فقد عبر عن هذه الظاهرة اكثر من باحث، وقد عبر الشباب المغربي في الهجرة في العديد من المناسبات عن انزعاجهم من هذا السلوك (غروز، كواشي، جزولي....).

(1) A. Maazouz "Les Français Marocains dans la région parisienne : mutations et trans-formation des rôles familiaux : les familles d'aujourd'hui, 1984 Genève.

ان غالبهم من الاميين او ذوي مستويات تعليم ابتدائية وجلهم يعمل في ادنى مستوى السلم الوظيفي الفرنسي حيث يعمل حوالي 77٪ كعمال عادييين وضمن وظائف لا تتطلب تخصصا او مؤهلات (عام 1990).

ينعكس هذا التضارب في تكوينه وخصائص الجيلين، الآباء والابناء، على مساهمات وسلوك الاجيال الجديدة من المغاربة في الهجرة، ويتحول في شكله المجرد الى ازمة هوية كتعبير عن التباين بين حضارتي وثقافتي الجيلين وتباين القيم والعادات مما يحدث ارتباكا شديدا لدى الشباب بين القديم والحديث، بين الاسرة من مجتمع الأصل ومجتمع المستقبل - اخيرا بين ما يتطلع اليه هذا الجيل بحكم تكوينه وما يمكن ان يحققه في ضوء واقعه الاسري والتربوي.

ويتجلى هذا التباين في اتجاهات ومواقف الشباب ويبرز عادة في اختباراتهم وانطباعاتهم حول العلاقات والمحيط الاجتماعي بشكل متضارب، فمن دراسة ميدانية اجراها احد الباحثين (1) على عدد من الشباب المغاربة المقيمين في فرنسا من فئة السن 15-19 سنة يتبين ان مسألة الهوية بقدر ما هي شديدة الاهمية في اتجاهاتهم بقدر يكون مفهومها لديهم شديد التعقيد، ففي حين يعرفون انفسهم على سبيل المثال بكونهم مغاربة (جزائري، تونسي او مغربي) متمسكين بهذا الانتماء عبر القسم الاوفر منهم عن رغبته في الاستقرار في فرنسا، وفي حين يعتبر غالبهم ان قيم بلد الأصل تختلف عن قيمه وعبر عن عدم رغبته في «العودة» فقد امتنع جلهم عن ابداء اي نقد ازاء بلد الاصل، كما يلاحظ ايضا انه في حين تعتبر المغاربيات ان الذكور المغاربة هم شديدا المحافظون وتخزين عقلية الشباب الفرنسي، فقد عبرن عن رغبتهن في الزواج من ابناء بلد الأصل. (2)

تكمن دواعي ازمة الهوية لدى الاجيال الجديدة المغربية في الهجرة - في اوربا - في التحول الذي حدث في علاقات الاسرة نتاج الهجرة والانتقال من وسط الى آخر متباينين ثقافيا

I. Toboada Leonetti "Les jeunes immigrés et la question nationale" séminaire: "crises (1) en Europe et émigration maghrébine" - Alger - Mars 1987.

A. Kaouchi, "Rapports familiaux et migration, le cas des maghrébins en Europe" (2) Les familles d'aujourd'hui. Geneve 1984

وقوميا، وتأثر الجيل الجديد بالوسط الجديد في حين تشبث الجيل الاول بقيم الوسط الاول، غير ان هذا التحول لا يكفي وحده لتفسير الاشكال التي اتخذتها ازمة الهوية لدى هذه الاجيال، ففي اعتقادنا ان هنالك عوامل خارجية مجتمعية في بلد الهجرة قد لعبت دورا اساسيا في استمرارية هذه الازمة بل في تفاقمها وتعقيدها، ونعتقد ان اهم هذه العوامل هي المتمثلة في السلوك العدواني والعنصري لبعض فئات مجتمع الاستقبال الفرنسي ازاء المهاجرين والمغاربة منهم بالخصوص وكذلك في السلوك التمييزي، والممارس منه خاصة من قبل المؤسسات في بلد الهجرة.

فيما يلي نعرض اهم معالم هذه الابعاد المعيقة لتطلع المهاجرين والاجيال الجديدة بالخصوص في التعايش المسالم والمتفاعل مع المجتمع الفرنسي، وقبل ذلك فقد ارتأينا عرض بعض الخصائص الاخرى للمهاجرين المغاربة والتي تؤثر عن رغبة هؤلاء في الاستقرار والتعايش وذلك تأكيدا لأهمية العوامل الاخرى في اعاققة عملية «الاندماج» واهمية ادوارها في تازيم اوضاع الشباب المغاربة في الهجرة، يسبق هذا كله عرض مقتضب لأهم الاطروحات المتداولة والمتعلقة بمسألتي الاندماج ومقاربات تحليل ظاهرة الهوية - الاندماج لدى الجيل الجديد من المهاجرين.

2 - ملاحظات حول المواقف والمقاربات المتعلقة بمسألة الاندماج والهوية

يمكن ابراز اهم المواقف والمقاربات التي سادت خلال الفترات الأخيرة في التوجهات التالية:

اول تلك التوجهات كان نابعا من الاعتقاد بامكانية ذوبان المهاجرين في مجتمع الاستقبال وتمثلهم assimilation لقيمه والتخلي عن قيم المنشأ، وهذا ما لا يتطلب اجراءات ذات خصوصية، غير انه سرعان ما تم التراجع عن مثل هذا التوجه نظرا لمعارضة العديد من الاطراف لعدم واقعيته، وقد جاءت تلك الاعتراضات حتى من داخل حكومات اليمين.

ثاني تلك التوجهات فرضتها جملة ظروف موضوعية وديموغرافية اثرت على خصائص الجاليات المهاجرة في فرنسا، منها فتوة الهرم السكاني وتزايد الشباب وبروز نزعات التأكيد على الهوية المميزة سواء من خلال السلوك الديني او من خلال البدء بتنظيم حركات احتجاجية وتشكل تنظيمات خاصة بهم. كل تلك الظواهر ادت الى ارتباك واضح لدى متخذي القرار في الحكومة الفرنسية وبين الباحثين المعنيين، حول ابعاد تلك المظاهر السلوكية والسمات التضامنية، ومن ثم التفكير بطبيعة انماط المعالجة والسياسات المطلوب اتباعها ازاء

المهاجرين، وبوجه الخصوص الجيل الجديد من بينهم، عندئذ ظهرت الى السطح اطروحة ادماج Integration المهاجرين في مجتمع الاستقبال وقد قصد به اساسا العمل على توفير الظروف السانحة للانصهار التدريجي للمهاجرين ضمن مجتمع الاستقبال.

اما التوجه الحديث، وقد جاء بالذات بعد صعود اليسار الفرنسي الى الحكم عام 1981، فهو يبدو اكثر واقعية حيث يأخذ المهاجرين كواقع يتوجب التعايش معه وتيسير الظروف السانحة لمشاركتهم في مجتمع الاستقبال دون تحديد مسبق للشكل الذي سيتخذه هذا التعايش في مراحل المتطورة حيث قد يقضي الى انصهار كلي او جزئي مع الاحتفاظ ببعض الخصوصيات، او الى الاندماج كجالية متميزة متفاعلة مع باقي المجتمع بفرنسا. ومن الملاحظ ان هذا التوجه هو الاكثر رواجاً داخل وخارج الجهات الحكومية قبل التحولات الاخيرة.

ان اعتماد هذا التوجه لا يعني بالضرورة توفر وضوح وتصور شامل لمشاكل الهجرة وضرورة تفاعلها مع مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والنواحي المعاشية الاخرى. بل يمكننا القول، ومن موقع المعاشية والخبرة، بان انماط السلوك الاجتماعي وردود فعل المهاجرين في جوانب متعددة لم تزل غير واضحة لمتخذي القرار هناك، بل وحتى لدى العديد من الباحثين المتخصصين.

ان تزايد انتشار السلوك الديني بين المهاجرين المغاربة قد اربك تصورات واستشرافات العديد من المعنيين بموضوع الهجرة من الباحثين السياسيين، ذلك انهم يرون في هذا السلوك توجهها مناقضا للسلوك الانماجي للمهاجرين، حيث تزايدت مشاركة هؤلاء والجيل الجديد بالخصوص ضمن عدة أنشطة في صلب الحياة المدنية الفرنسية بتنظيمهم مظاهرات ومسيرات جماهيرية بالاشتراك مع جاليات وطوائف اخرى وبالتنسيق مع عدة جهات فرنسية كمسيرة خريف 1983 التي نظمت تحت شعار «من اجل التساوي ومناهضة العنصرية» والتي كانت موجهة للحكومة والرأي العام الفرنسي.

ومن ابرز المقاربات المعتمدة في معالجة مسألة اندماج وهوية المهاجرين يمكن عرضها ضمن توجهين رئيسيين هما:

مقاربة اولى تميز البعد الثقافي - الديني في تحليل سلوك المهاجرين وابنائهم وتعتبره متسما بالانتماء الطائفي او «الجالياتي» communautaire، ويختلف هذا التفسير من باحث لآخر، فمنهم من يؤكد على الازدواجية الثقافية للمهاجرين (بين ثقافة مجتمع الاصل وثقافة مجتمع الاستقبال)، ويفسر البعض الآخر سلوك المهاجرين بكونه دفاعا عن الجالية - الطائفة من تحدي المجتمع الخارجي او التحدي الحضاري الخارجي، ويرد قسم آخر من الباحثين

هذا السلوك الى ازمة قيم مجتمع الاصل امام انتكاسات الاندماج في مجتمع الاستقبال.

ضمن هذا التوجه فان الجالية المغربية، في نظر هذه المقاربة، تتفاعل وتتنظم حسب قيم وقواعد الطوائف - الجالية، وعموما فان الثقافة في نظر هذه المقاربة تفرض على الاشخاص بشكل احادي exclusif علاقات اجتماعية محددة، وليس للعوامل الاخرى بالتالي دور محدد او فعال في تحديد سلوك ومواقف الجالية.

غير ان سلوك المغاربة المهاجرين لا يؤكد هذا التوجه ويكفي ان نذكر بالمسيرات التي اشترك فيها هؤلاء مع الجاليات الاخرى ومع فئات واطراف فرنسية.

تميل المقاربة الاخرى الى اعتبار المهاجرين جزءا من الطبقة العاملة في فرنسا وذلك بسبب تشابه اوضاع الفئتين غير انه يصعب ضمن هذا التوجه تفسير العديد من سلوك المهاجرين، كضعف انتمائهم للمنظمات النقابية الفرنسية، بل قد فشلت تجارب العديد ممن شارك منهم ضمن هذه الاطر(1) او تركزت اتصالاتهم على محاور اخرى لا تمثل الا جزءا محدودا من برامج هذه المنظمات كمحور مكافحة العنصرية مثلا.

فالبنوية بشكلها التقليدي، والذي يغلب عليها طابع المركزية الاوروبية في انطلاق تحليلاتها من منظور مجتمع طبقي متبلور(2) وكذلك الثقافية L'approche culturaliste مقاربتان لا تسمحان هنا بفهم صيرورة تطور سلوك المهاجرين وابنائهم في فرنسا.

3- استقرار الجالية المغربية في فرنسا

رغم الظروف المعاشية المتردية عموما للجالية المغربية يلاحظ ان هناك توجهها متزايدا لدى هذه الجالية والجيل الجديد منها بالخصوص نحو «الاستقرار» في فرنسا، وذلك ما يمكن ان نشقه من الظواهر والمؤشرات التالية:

(1) ذلك ما اكدته الدراسات التاليتان على سبيل المثال:

المصدر المشار اليه

- A. Jazouli

- T. Alal, J. P. Buffard, Situations migratoires", ed. Geliilce.

(2) في نقده لهذه المقاربة يقول جزولي، ان الجيل الثاني من المهاجرين على خلاف الطبقة العاملة يعاني من نوعين من القهر، الاول لكون هذا الجيل مهاجرا والثاني نتاج موقعه ضمن علاقات الانتاج... المصدر السابق 320.

- التجمع الاسري

على اثر قرارات ايقاف الهجرة سمحت السلطات الفرنسية للمهاجرين بتجميع افراد اسرهم وتسوية اوضاع هؤلاء القانونية عند حلولهم بفرنسا، وقد ادى ذلك الى قدوم عدد هائل من ابناء وازواج المهاجرين منذ ذلك الحين، حيث تزايدت نسبة العوائل لمجموع الاسر المعيشية المغربية، خلال السنوات الفاصلة بين التعدادات العامة للسكان 1975 و 1982 و 1990 من حوالي 50٪ الى حوالي 70٪، ثم 76,5٪ في السنة الاخيرة كما تضاعف عدد الاطفال المغربية واصبحوا يمثلون كما اشرنا حوالي نصف الجالية المغربية.

نسبة العائلات من مجموع

اسر المغربية في فرنسا

الجنسية	1975	1982	1990
الجزائرية	51.5	67.9	76
المغربية	48.3	68.9	76.6

- تزايد طلب النساء على العمل

تزايد عدد الناشطات اقتصاديا بين المغاربيات المقيمت بفرنسا من 22.895 عام 1975 الى 66.440 عام 1982، اي انه تضاعف مرتين خلال سبع سنوات بنسبة زيادة تفوق 100٪ وذلك رغم صعوبة اسواق العمل وانتشار البطالة بينهن والتي بلغت نسبتها 44.8٪ لدى الجزائريات و 35.5٪ لدى التونسيات والمغريبات حسب احصاءات عام 1982.

- تحسن سكن المهاجرين

لقد تقلصت نسبة المساكن الشديدة الاكتظاظ التي يقطنها المغربية، من 27.6٪

عام 1975 الى 19.5٪ عام 1982، كما تحسنت عموما المرافق الصحية داخل السكن، فعلى سبيل المثال ارتفع عدد مساكن المغاربة التي يتوفر بها «بيت حمام» من 142.155 الى 267.220 مسكن أي بزيادة تبلغ 88٪ خلال الفترة ما بين التعدادين.

ويرتبط هذا التحسن في الإقامة في نظرنا بتزايد الالتحاق الاسري حيث تشترط القوانين الفرنسية توفير مسكن ملائم قبل الموافقة على التحاق افراد الأسرة.

من جانب آخر يلاحظ بان هناك تقلصا واضحا في تحويلات الجالية المغربية الى بلد المنشأ خلال الفترة الماضية حيث تقلصت قيمة تحويلات التونسيين المقيمين بفرنسا (مليون فرنك) من 934 عام 1979 الى 566 عام 1982 ومن 207 بالنسبة للجزائريين الى 63 خلال نفس الفترة، وهذا له علاقة كذلك بالتجمع الاسري وتحسن المسكن وبالتالي تزايد المصاريف وتقلص الحاجة لتمويل مصاريف الاسرة في بلد المنشأ.

ولا جدال في القول بان التجمع الاسري وكذلك اشتغال المرأة يوفران ظروفًا نفسية تساعد على الاستقرار وتساهم في تحسين دخل الاسرة، كما يتوجب الإشارة الى ان البديل الآخر في بلد المنشأ ليس بالمغربي بل ان تجارب غالبية العائدين تبدو في معظمها محببة وعموما فان الهجرة المغربية العائدة بقيت محدودة هذا رغم العديد من الاجراءات والتشجيعات التي اتخذتها الحكومة الفرنسية لدفع المهاجرين للعودة الى بلدانهم الاصل، حيث لم يتجاوز معدلها السنوي خلال الثمانينات اكثر من 20.000 شخص بالنسبة للجاليات الثلاث، وقد تكون تلك العودة أساسا للذين بلغوا سن المعاش فيهم يمثلون حوالي 60.000 شخص من مجموع المغاربة في فرنسا عام 1982، كما يلاحظ توازن بين الداخلين والخارجين الى فرنسا من المغاربة خلال هذه الفترة مما لا يعطيها صفة الهجرة العائدة، بل دوران عمل طبيعي.

4- تنامي الحركات العنصرية في أوروبا

تشهد الساحة الأوروبية انتشارا واسعا للأحزاب والحركات اليمينية المتطرفة التي تعرف خاصة بمعاداتها للمهاجرين الأجانب وبميوالاتها الفاشية. قد تنامت هذه التيارات خلال السنوات الأخيرة لحد أنها أصبحت تنصدر الحياة السياسية في غالب الدول الأوروبية. فعلى سبيل المثال فقد انتقلت شعبية «الجهبة الوطنية» في فرنسا خلال السنة الأخيرة 1992 من 13٪ الى 18٪، وفي ألمانيا تحصل «حزب الوحدة الشعبية» على 10٪ من الاصوات في الانتخابات البرلمانية في سبتمبر 1991، وفي النمسا تمكن «حزب الحرية» من انتشال 23 مقعدا في بلدية العاصمة من مجموع 100 مقعد في أواخر عام 1990، وفي بلجيكا

تمكنت مجموعة احزاب اليمين العنصري من مضاعفة شعبيتها باربع مرات خلال الفترة 1987 و1991 حيث تحصلت على 8٪ من مجموع الأصوات في الانتخابات الاشتراكية في نوفمبر 1991، وسجلت في نفس هذه الانتخابات ارقاما قياسية في بعض المدن الرئيسية كما هو الحال في مدينة فلندر (Flandre) حيث تحصلت على حوالي 25٪ من الاصوات. وفي ايطاليا تحصلت «الحركة الاجتماعية الايطالية» النيوفاشية على 2 مليون صوت في انتخابات البرلمان الأوروبي مما مكنها من الصعود لهذا البرلمان، وفي الدنمارك تحصل «حزب التقدم» على 10٪ في الانتخابات الاشتراكية، وبالحصيلة قدر عدد المصوتين للأحزاب العنصرية والنيوفاشية في أوروبا بحوالي 7 مليون ناخب عام 1989 (1).

رغم ضعف عدد المهاجرين عامة (غير المتجنسين) بما فيهم العرب، وضعف نسبتهم من اجمالي سكان أوروبا، ورغم أهمية أدوارهم في هذه المجتمعات وتأكيد رغبتهم في الاستقرار والاندماج ضمن مجتمعات الاستقبال الأوروبية، تشير الأحداث الى تعرض هذه الجاليات والعربية منها بالخصوص الى اعتداءات عنصرية متزايدة تعرض بعض خصائصها وأشكال تطورها فيما يلي بالتركيز على حالة فرنسا.

تتميز هذه التنظيمات والأحزاب بحريتها العالية واعتمادها على قوى شبابية (في ألمانيا يوجد حوالي 40,000 حركي منتم الى احزاب أو حركات عنصرية، أو نيوفاشية) (2) ويتميز سلوك مناضليها بالعنف الموجه أساسا ضد المهاجرين غير الأوروبيين. ففي بريطانيا قدرت هذه الاعتداءات عام 1989 بـ 7000 حادث، وفي ألمانيا قدر عدد الاعتداءات والجرائم العنصرية خلال الأشهر الأولى فقط من عام 1991 بـ 1527 حادث (ضرب، قتل، تشويه، أو حرق مساكن الأجانب) وكانت الجالية التركية هي المستهدفة بدرجة رئيسية وتفاقت هذه الاعتداءات لحد اعلان الحرب من قبل الطرفين حيث حذرت مجلة «حريات»، التركية الصادرة في ألمانيا، السلطات بالقول «ان عدم حماية الأجانب سوف يؤدي الى حرب بين المدنيين في الشوارع الألمانية... وهي حرب بين الأجانب وبين فرق النازية الجديدة.. حرب مفتوحة ما لم تقم الشرطة الألمانية بدورها ومهامها». (3)

(1) L'Alibi perdu: Montée des haines et des extrémismes . Claude Julien,
le Monde Diplomatique. Decembre, 1991.

(2) le Monde Diplomatique. Decembre 1992.

(3) عدنان احمد، السفير 1991/11/27.

كما يبدو أن هناك تنسيقا متزايدا بين هذه الحركات داخل جل بلدان أوروبا وكذلك مع الحركات المشابهة الأمريكية مثل حركة «كلوكوكس كلان» وتتلخص أهم اختيارات هذه الحركات كما وردت في بيان الخميس الذي قدمه السيد لوبان قائد «الحزب الوطني الفرنسي» أو في تصريحات قادة حزب «Verman Blok» البلجيكي في التخلص من المهاجرين وذلك لحماية العنصر الأوروبي وتوفير مواطن عمل للمحليين، ولانجاز ذلك تقترح هذه التيارات طرد المهاجرين غير الشرعيين والمهاجرين العاطلين عن العمل، وتدعيم انشاء المساكن «القيتوية» بما يمكن من مراقبة المهاجرين وفصلهم عن المجتمع المحلي، وعدم تشجيع المهاجرين على البقاء وذلك بمنعهم من التغطيات الاجتماعية والمساعدات العائلية وفصل مدارسهم عن المدارس الوطنية وهي اجراءات من شأنها في نظرهم أن توفر امكانيات أكبر للتغطية الاجتماعية لأفراد المجتمع وتمكن من محاصرة الاسلام ونبذه باعتباره عقيدة معادية لبلجيكا وأوروبا» (1).

أما الحملات الانتخابية لهذه التيارات فانها عادة ما تتم تحت شعارات عنصرية وفاشية مثل: «من أجل حماية النقاوة العرقية» «لا تضع يدك على فرنسا (بلجيكا)» الجنسية الفرنسية (...) تداس من قبل المهاجرين» «تطهير البلاد من الأجانب» و «يهود وعرب في القرن» و«أخنقوهم جميعا بالغاز» ولا تقتصر هذه الحملات على الصحف والمجلات بل تصدر سنويا ملايين الكتب والصور والملصقات لترويج هذه الشعارات.

ويسترعي الانتباه الشكل الثاني الذي اخذته هذه الحملات هذه المرة في بعض البلدان الأوروبية حيث، وخلافا للعادة، انسأقت غالب القوى السياسية بما فيها بعض الجهات الحاكمة اضطرارا أو طوعيا، وراء شعارات وتوجيهات التيارات العنصرية والنيوفاشية. ففي بلجيكا يندد «الحزب الاصلاحى الليبرالى» بما سماه «بالمجرة الفوضوية» والتسامح في منح الجنسية للمهاجرين واقترح وضع حد للتجمع العائلي وايقاف صرف المنح العائلية كما تقدم «حزب الاشتراكيين المسيحيين» بنفس الاقتراحات تقريبا. (2)

وتعتبر فرنسا مدالا متقدما بهذا الخصوص فمنذ حوالي عقدين من الزمن أصبح

Le Monde Diplomatique - Fevrier, 1992.

(1)

Le Monde Diplomatique - Fevrier, 1992.

(2)

موضوع الهجرة محورا رئيسيا للحملات الانتخابية في هذا البلد فقد طغت موضوعات الهجرة على مختلف الحملات السابقة: ففي بداية السبعينات سادت صيحات ايقاف الهجرة وطرد المهاجرين، صحبتها قرارات ايقاف قبول عمالة وافدة، تلاها اصدار مرسوم «مليون العودة» وهو المليون فرنك (عشرة آلاف فرنك فرنسي) الذي يدفع للمهاجر الذي يقرر العودة الى بلده الأصل مقرونا باجراءات مراقبة مشددة على المهاجرين لدفعهم لمغادرة فرنسا. في أواخر السبعينات تركزت الحملات المناهضة للمهاجرين على موضوع «الهجرة غير الشرعية» مصحوبة باجراءات الطرد التعسفي للمهاجرين التي أطلق عليها «عمليات الشارتر» وهي الطائرات التي خصصت لنقل المطرودين الى بلدانهم الأصل. عقد الثمانينات طغت على حملاته وانتخاباته موضة العدا للاسلام مصحوبة بحملات معادية للتقاليد الاسلامية في اللباس والأعياد، وكانت أهمها مسألة الحجاب وقضية مسلمات المحجبات في المدارس. أما الانتخابات التي دارت في عام 1992 فقد تركزت مرة أخرى على موضوع «الهجرة غير الشرعية».

الجديد في هذا التقليد، وما يمثل خطورة الموقف في الوضع الراهن، هو من ناحية تحول هذه الحملات من ظرفية مقتصرة على فترات الانتخابات الى دائمة مرافقة لجميع الأحداث السياسية. فالحملات المعادية للمهاجرين في شكلها المكثف بدأت في المرة الأخيرة قبل حوالي سنة (منذ منتصف عام 1991) من موعد الانتخابات التي أجريت في عام 1992.

الجديد ايضا من ناحية أخرى يكمن في انسياق هذه المرة غالب التيارات السياسية، بما فيها المعادية للعنصرية تقليديا، في كمين اليمين المتطرف. فبعد ان افتتح السيد «لوبان» رئيس «الجبهة الوطنية» باعلانه الثورة ضد آفة المهاجرين... السبب الحقيقي لتردي الأوضاع والأمن، (1) اعرب السيد / شيراك رئيس الحزب الجمهوري والمرشح السابق لرئاسة الدولة ورئيس الوزراء في منتصف الثمانينات عن عدم ارتياحه «للروائح الكريهة» التي تصدر عن المهاجرين ثم دعا السيد / جيسكار ديستان رئيس الدولة السابق الى اخلاء المهاجرين وسانده في ذلك السيد / ريمون بار رئيس الوزراء الاسبق.

الرأي الآخر، على ضعفه، عبر عنه العديد من الشخصيات والمسؤولين والأحزاب،

من داخل السلطة ومن خارجها، فقد عبر وزير الشؤون الاجتماعية والاندماج الفرنسي، وكاتب الدولة للشؤون الخارجية ورئيس الحزب الاشتراكي الحاكم، على سبيل المثال لا الحصر، عن ازدرائهم من هذه الحملة ودعوا الى معالجة المسألة من جذورها بدعم الجهود التنموية في بلدان الاصل المرسلة للعمالة.

5- التمييز المؤسسي

تمارس المؤسسات ميذا هاما عند التعامل مع المهاجرين، وذلك بتفضيل الفرنسيين على المهاجرين سواء في العمل أو في التكوين المهني أو في التعليم، وذلك خلافا لنصوص القوانين المعتمدة. كما تنصب مراقبة «المنحرفين» في الشوارع وفي الميتر على المهاجرين دون غيرهم حيث يتم الفرز حسب لون الشخص في غالب الأحيان.

لقد أدت هذه الممارسات وغيرها الى تضيق الفرص أمام الشباب من أصل مغاربي المقيمين في فرنسا ومن ثم تردي أوضاعهم المعاشية حيث تفتشت البطالة بينهم، ويلاقون كذلك صعوبات في النجاح المدرسي وفي التحصل على فرص تكوين مهني هذا بالإضافة الى رداءة أحوال سكنهم واقامتهم عموما.

ترتفع نسبة البطالة من بين المهاجرين النشطين حيث تقدر، من خلال سياسات التعداد بـ 19,4٪ مقابل 8,4٪ للسكان النشطين الفرنسيين.

كما يتبين من نفس التعداد أن حوالي نصف المهاجرين المغاربة النشطين ولهم عمل يشتغلون في أدنى السلم الوظيفي أي كعمال عاديين، ويبين جدول توزيعهم حسب القطاعات أن ما يزيد عن نصفهم يعمل بقطاعات مهددة بالانهيار كما تبينها تجربة العشرية الأخيرة (30٪ في قطاعي البناء والخدمات والمباني في قطاعي الصناعات التحويلية والصناعات التجهيزية).

وحول الأوضاع السكنية للجالية المغربية، يتبين أن 59٪ منهم يقيمون بمساكن مكتظة مقابل 51٪ بالنسبة للفرنسيين، وأن 40,3٪ منهم يسكنون HLM مقابل 14,5٪ بالنسبة للفرنسيين.

كما أن العديد من المؤشرات تدل على أن أوضاع أبناء المهاجرين سيئة في العديد من جوانبها نذكر منها (1):

(1) انظر باكثر تفصيل: «ارماصات حول مسألة الاندماج» وخالد الوحيشي - لوموند ديبلوماتيك جانفي 1991

* فشلهم في التعليم حيث نجد أن 85٪ من الجيل الثاني المغاربي يحرمون من متابعة المرحلة الثانية من التعليم الثانوي ويوجهون بشكل تمييزي الى اختصاصات مهنية.

* ان الاعتداء العنصري هو وثيق الصلة بتشابه أوضاع الفئات المعتدية بالفئات المعتدى عليها. فغالبا الاعتداءات العنصرية تقوم بها عناصر من سكان الأحياء التي يقطنها المهاجرون، أي ان أوضاعهم السكنية مشابهة عامة للأوضاع السكنية للمهاجرين، كما انه من خصائص الشباب المنتمين للحركات العنصرية، مثل حركة الرؤوس المحلوقة (Skin Heads) أو الشباب في قاعدة «الجهبة الوطنية» العنصرية. وكما تبين محاضر محاكمات هؤلاء هم في غالبيتهم من العاطلين عن العمل. (1)

* ان تنامي السلوك الديني والمتعلق بالهوية لدى المهاجرين المغاربة هو بدوره شديد الارتباط بتنامي السلوك العنصري، حيث يلاحظ الارتفاع الشديد لأحداث عنصرية خلال العشريتين الأخيرتين وفي نفس الوقت تزايدت على سبيل المثال المساجد حيث تضاعف عددها خلال عشرية السبعينات أكثر من 10 مرات. (2)

ان سلوك الجيل الجديد من أصل مغاربي هو بدون شك مؤشر رغبته في الاستقرار في فرنسا. غير أن هذا الجيل يعمل على تحقيق تطلعه بطرق مميزة تختلف عن الطرق التي اعتمدها الجيل الأول، وتبدو تلك الطرق على ما يظهر معقدة وصعبة الفهم من قبل مجتمع الاستقبال، فمن أبرز هذه الطرق نورد الآتي:

تشبث الجيل الجديد بهويته العربية الإسلامية في سلوكه اليومي وذلك عن طريق رفضه المحرمات من اكل وكحول وغيرها من الطقوس، وممارسته للقواعد الإسلامية، غير أن هذا السلوك يبدو متميزا نسبيا عن التقليد الديني في بلداننا وغير متناقض مع السلوك الاندماجي لهذا الجيل كما تبرزه بشكل مفصل الدراسة الميدانية التي قام بها السيد «كيبيل» (3) فهم لا يرفضون معايشة الفرنسيين المسيحيين في حياتهم العامة وحتى في

Le Monde du 21/5/1985

Keppel G. Les Banlieues de l'Islam Ed. Seuil, 1987.

(1)

(2)

(3) المصدر المشار اليه.

مجالستهم في الأكل والشرب مع امتناعهم عن بعض استهلاكاتهم، كما تشجع المساجد وحتى منها المتواجدة بأماكن العمل على التفاني في العمل واعتماد الطرق والأساليب المدنية الحضرية في العلاقات والتعبير عن الاحتياجات والمطالب الاجتماعية.

— كما نلاحظ أن تنامي السلوك العنصري وتنامي ردة الفعل على هذا السلوك حدث، في نفس الفترة، وبوتائر مشابهة لتنامي الانعكاسات السلبية للازمة وابرزها البطالة والبطالة بين الشباب عامة وبين المهاجرين بأكثر حدة.

فقد بلغت نسبة البطالة بين السكان النشطين المغاربة المقيمين في فرنسا عام 1990 26,5٪ مقابل 10,3٪ بين الفرنسيين وبلغت هذه النسبة بين الناشطات المغاربيات 24,3٪.

في ضوء ما سبق يمكن القول ان تردي اوضاع الشباب الفرنسي من ناحية وترويج الدعاية العنصرية من قبل الاطراف السياسية ذات المصلحة في ذلك من ناحية ثانية، هي العوامل التي دفعت قسما من الشباب الفرنسي، وعادة الأقل وعيا وانخراطا في الحركات الثقافية والاجتماعية، نحو البحث عن «كبش فداء» يحمله مسؤولية اوضاعه ويصب عليه نقمته فالدعاية اليمينية المروجة، عادة ما تؤكد على منافسة الأجانب غير الشرعيين للفرنسيين «فهم يستحوذون على مواطن عمل الفرنسيين ويتمتعون بمزاياهم وحقوق تحد من الثروة الوطنية، وتقلل بالتالي من فرص رفاه هؤلاء الشباب الفرنسيين» على حد قول أحد قادة هذا التيار.(1)

ومن ناحية المهاجرين يمكن القول ان السلوك العنصري يقود الى خلق او تقوية حالة من الحرمان والكبت والشعور بالضعف والمهانة لديهم ولدى أبنائهم مما يدفع هؤلاء الى التشبث بهويتهم والتفوق على الذات كردة فعل على المعوقات القائمة في وجوههم، «ان تأكيد هذا الانتماء، كما يقول كيبل، لدى العديد منهم هو طريقة للاستقرار ويعبر بالتالي عن اعتزازهم بانتمائهم لأمة لها حضارة عربية ومميزة».

ملاحظات ختامية

ابرز تحول شهدته الهجرة العربية الى اوروبا خلال العشريتين الاخيرتين يتعلق «بالتجمع العائلي» غير ان القوانين والتشريعات المتعلقة بحق المهاجرين في دعوة افراد اسرهم

من بلدان الأصل للإقامة معهم، تختلف من بلد لآخر وقلما كانت توفر كل الضمانات لجميع افراد الاسرة للالتحاق بذويهم في البلد الاوروبي.

لذلك وبهدف دعم استقرار وامن العمال المهاجرين المقيمين في بلدان اوروبا يتوجب توحيد التشريعات الضامنة لكافة حقوق المهاجرين لاستقبال افراد اسرهم واعتماد الليونة في توفر شروط التجمع العائلي كشرط السكن الملائم او الدخل الكافي.

ان مضاعفات التدين بين المهاجرين هي في العمق لا تتنافى والاندماج في المجتمع الغربي، بل قد يصح القول ان مساحة التدين هي احد شروط الاندماج، من جهة كونها عامل توازن نفسي وروحي لا يمكن بدونه ان يحصل تفاعل ايجابي مع المحيط الاجتماعي، وتؤكد ذلك على سبيل المثال نتائج سبر الآراء الذي اجرته «ايفوب ifop» حيث تبين ان تسعة اعشار (9/10) المسلمين المستجوبين يعتبرون ان الديانة الاسلامية تتواءم تماما وعملية الاندماج في المجتمع الفرنسي(1).

ولكون اهم عامل معوق لاندماج — تعايش المهاجرين مع المجتمع الغربي يكمن في التمييز والعنصرية، فان نجاح سياسات اندماج المهاجرين يتوقف الى حد كبير على مدى النجاح في القضاء على العوامل المجتمعة المغذية للسلوك المعادي للمهاجرين.

ولكون العامل الحضاري — الثقافي له دور هام في حياة المهاجرين وضمان استقرارهم النفسي والمعنوي وضمان بالتالي مساهماتهم في بلد الاستقبال، فانه يتوجب توفير الضمانات لهؤلاء لممارسة قيمهم وعاداتهم بكل حرية كما يجب توفير الفرص لتلاقي وتمازج الثقافات بما يسمح للفرد الاوروبي بتفهم اوسع لثقافة الآخر وتجنب اتخاذ مواقف مسبقة ازاءها (بادماج ثقافة الآخر ضمن البرامج التعليمية والاعلامية... مثلا).